

فِي صَحْرَاءِ التِّيهِ وَالْغُرْبَةِ

فِي صَحْرَاءِ التِّيهِ وَالْغُرْبَةِ: يَتَوَهَّجُ قُرْصُ الشَّمْسِ، تَتَهَيَّلُ أَشْعَتُهُ فَوْقَ رِمَالِ
الصَّحْرَاءِ كَأَلْفِ الْحَيَّاتِ الرَّقَطَاءِ، تَتَأَجَّجُ كَالنِّيرَانِ الْمُسْتَعْرَةِ .. تُلْهَبُ الْأَقْدَامُ
الْمُتَرَدِّدَةَ، تَحْرِقُ الْوُجُوهَ الْكَالِحَةَ .. يَأْخُذُ الْأَجْسَادَ الْعَرِيقُ يَكَادُ يَزْهُقُ الْأَنْفَاسَ!
شَمْسٌ مُحْرِقَةٌ، وَرِمَالٌ مُلْتَهَبَةٌ، وَجَمَاجِمٌ وَأَشْلَاءٌ مُبْعَثَرَةٌ؛ تَحُطُّ عَلَيْهَا الطُّيُورُ
الْجَارِحَةُ وَتَلْهَوْنَ بِهَا ضَوَارِي الصَّحْرَاءِ.

وَأَرَى مَنْ يَبِيعُ مَسَاخِيطَ مِنَ الشَّمْعِ وَأُخْرَى مِنَ الثَّلْجِ .. تَذُوبُ مَعَ حَرَارَةِ
الشَّمْسِ!
وَشُخُوصُ شَوْهَاءِ بَلْهَاءٍ؛ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ سَعِيدٌ بِالتِّيهِ لَا يَعْرِفُ أَنَّ هُنَاكَ حَيَاةً
خَارِجَ هَذَا التِّيهِ!
وَمِنْهُمْ مُكَبَّلٌ بِأَثْقَالٍ مِنَ الرَّمَالِ فِي قَدَمَيْهِ، وَيَضَعُ فِي جُيُوبِهِ -وَيَا لِلْعَجَبِ-
مِنْ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ!

وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْيَاهُ التَّرْحَالُ وَطُولُ الطَّرِيقِ .. فَجَلَسُوا يَتَنَظَّرُونَ الْمَوْتَ!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْرِي فِي حَلَقَةٍ مَعْصُوبِ الْعَيْنَيْنِ، يُمَسِّكُ أَوْلَهُمْ بِنِيَابِ آخِرِهِمْ؛
يُدُورُونَ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ .. يَلْهَثُونَ وَلَا يَتَقَدَّمُونَ!

وَأَرَى آخِرِينَ مِنْهُمْ يَسِيرُونَ بِغَيْرِ هُدًى كَالْأَنْعَامِ وَرَاءَ جَلَادٍ يَلْبَسُ لَيْسَ رُعَاةَ
الْبَقَرِ، يَمْتَطِي فَرَسَهُ، يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ بِالْغِنَاءِ، يَضْرِبُ بِسَوْطِهِ فِي الْهَوَاءِ .. تَعْوِي
السَّيَاطُ فِي الْفَضَاءِ، تُلْهَبُ بِزَيْرِهَا الْأَجْسَادَ .. تُسْرِعُ الْخُطَوَاتُ .. تَتَخَبَّطُ
الْأَقْدَامُ .. خَوْفٌ وَرَجَاءٌ يَجْدُو بِالْأَنْعَامِ إِلَى طَرِيقِ الْهَلَاكِ!

يُلْبَسُ الْجَلَادُ أَحَدَ الْبُلْهَاءِ مِثْلَ لِبَاسِهِ، وَيُعْطِيهِ سَوْطًا كَسَوْطِهِ، وَلَكِنَّهُ مِثْلُ
أَقْرَانِهِ مَعْصُوبِ الْعَيْنَيْنِ .. يَضْرِبُ بِسَوْطِهِ مِثْلَ سَيِّدِهِ، وَرُبَّمَا .. صَوْتُهُ أَعْلَى
وَسَوْطُهُ أَشَدُّ .. فَرِحَ بِتَوْبِهِ وَسَوْطِهِ، نَشَوَانٌ بِمَكَانَتِهِ الْمَزْعُومَةِ عِنْدَ سَيِّدِهِ، لَا
يَشْعُرُ بِلَسَعَاتِ سَوْطِ الْجَلَادِ عَلَى ظَهْرِهِ!

يَتَسَمُّ الْجَلَادُ بَدَهَاءٍ .. يُلْبَسُ أَحَدَهُمْ زِنَارًا، وَيَقْلُدُ آخَرَ جَرَسًا فِي عُنُقِهِ ..
يُشْعَلُ نَارًا لِيَطُوفَ حَوْلَهَا الْحَمَقِيُّ، وَتَتَهَاوَى فِيهَا الْهُوَامُ!
يَعِدُّ الْجَلَادُ الْعُمَيَانَ وَيُمْنِيَهُمْ بِبِحَارٍ مِنَ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ، يُعْطِيهِمْ قَرْبَةَ مَاءٍ،
يَصْرُخُ فِيهِمْ: لَا يَشْرَبْ أَحَدُكُمْ مِنَ الْقَرْبَةِ إِلَّا نُقْطَةَ مَاءٍ؛ فَقَدِ اقْتَرَبَ الْوُصُولُ
إِلَى دَرَبِ الْحَيَاةِ حَيْثُ الْحَيَاةُ .. أَسْكَرْتَهُمُ الْكَلِمَاتُ، يَهْتَفُ أَحَدُهُمْ فِي الْبُوقِ

يُحْتِثُهُمْ عَلَى الْمَسِيرِ: جِدُّوا الْمَسِيرَ، فَمَنْ مِنْكُمْ مِثْلُهُ يَمْلِكُ سَيْفَ الْمَعْرِزِ وَذَهَبَهُ؟

يَتَمَّتُمْ أَحَدَ الْعَمِيَانِ فِي وَهْنٍ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ: أَعْرِفُ الدُّرُوبَ لَوْ تَرَكَوْنِي أَبْصُرُ،
إِنَّهَا صَحْرَائِي وَصَحْرَاءُ أَجْدَادِي!

وَيَرْفَعُ آخَرَ صَوْتَهُ: أَخْبَرْنَا مَنْ نَجَا مِنْ هَذَا التَّيِّهِ؛ أَنَّ طَرِيقَ النِّجَاةِ يَسِيرٌ بِلَا
أَنْحِرَافٍ، خَطًّا مُسْتَقِيمًا .. أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ أَنْهَكْتَنَا كَثْرَةُ الْإِنْحِرَافَاتِ وَالْإِلْتِوَآتِ،
وَشَاخَ مِنَّا مَنْ شَاخَ وَمَاتَ مِنَّا مَنْ مَاتَ، وَلَمْ نَضِعْ أَقْدَامَنَا بَعْدُ عَلَى الطَّرِيقِ!

تَذَكَّرَ الْجَلَادُ وَصِيَّةَ جَدِّهِ لَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ؛ فَقَالَ -بِعَطْرَسَةٍ وَاسْتِكْبَارٍ:
أَنْتُمْ قَوْمٌ ضَّالُّونَ، لَا تُبْصِرُونَ؛ فَلَمْ تُفَكِّرُوا؟ وَكَيْفَ تَتَكَلَّمُونَ؟ فَإِنِّي .. ﴿مَا
أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (١)؟

يَسْتَعْطِفُ أَحَدُهُمُ الْجَلَادَ: أُرِيدُ إِزَارًا يُوَارِي سَوَاتِي .. أُرِيدُ لُقْمَةً تُسْكِنُ
جَوْعَتِي .. أُرِيدُ شَرْبَةَ مَاءٍ تُطْفِئُ ظَمَاتِي! ...

يَتَسَمُّ الْجَلَادُ فِي خُبْثٍ وَيُعْطِيهِ وَرْدَةً؛ وَهُوَ يَقُولُ: هَاكُمُ وَرْدَةٌ! .. مَنْ مِثْلِكَ

(١) انظر: سُورَةُ (غَافِرٍ / ٢٩).

يَتَجَمَّلُ بِالْوَرْدَةِ؟!!

يُصَفِّقُ بَعْضُ الْعِمِيَانِ وَيَهْلِلُ .. يَسْكُتُ الْمُسْتَعْطِفُ!
وَلَكِنْ .. مَا تَصْنَعُ وَرْدَةٌ فِي صَحْرَاءٍ قَاحِلَةٍ بِلَا مَاءٍ؟!!

يَحْلُمُ أَحَدُ الْعِمِيَانِ - وَهُوَ يَسِيرُ - بِأَنَّ تَصَدَّمَ قَدَمُهُ بِ(مِصْبَاحِ عَلَاءِ الدِّينِ) ..
يَخْرُجُ (مَارِدُهُ) مِنَ الْقَمْتَمِ لِيُنْقِذَهُ مِنْ هَذَا التِّيهِ!
يَضْحَكُ (مَارِدُ عَلَاءِ الدِّينِ): عَجَبًا! أَنْتَ تَحْتَاجُ إِلَيَّ؟ فَلِمَ لَا تُخْرِجُ مَارِدَكَ مِنْ
بَيْنِ ضُلُوعِكَ، يُنْقِذُكَ؛ فَقَدْ طَالَ رُقَادُهُ؟ ...

أَرَى مَنْ يَحْمِلُ مِصْبَاحًا لَا يُجِدِي ضَوْؤُهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَلَا مَعَ مَعْصُوبِي
الْعَيْنَيْنِ!

يَا مَنْ يَحْمِلُ مِصْبَاحًا! ..

أَنَا لَا أَبْحَثُ عَمَّنْ يَبِيعُ الشَّمْعَ أَوْ يُوقِدُهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ!
نَعَمْ؛ نَحْتَاجُ إِلَى مِصْبَاحِكَ فِي ظِلْمَةِ لَيْلٍ، وَلَكِنْ .. نَحْتَاجُ الْآنَ مَنْ يَزْرَعُ
شَجَرَةً فِي الصَّحْرَاءِ، أَوْ يُفَجِّرُ فِيهَا عَيْنَ مَاءٍ، أَوْ يَرْسُمُ بِالْأَحْجَارِ عَلَى الْأَرْضِ
طَرِيقَ خَلَاصٍ!

إِنِّي أَبْحَثُ عَمَّنْ يَحْمِيهِمْ مِنْ لَهَبِ الشَّمْسِ، وَيَسِيرُ بِهِمْ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ.

أَبَحْتُ عَمَّنْ يَرْفَعُ أَجْرِبَةَ الرَّمْلِ عَنْ أَقْدَامِهِمُ الْمَكْدُودَةَ وَكَوَاهِلِهِمُ الضَّعِيفَةَ،
وَيَرْفَعُ عَنْ أَعْيُنِهِمُ الْحَرَقَ السَّوْدَاءَ، أَوْ يَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى طَرِيقِ النَّجَاةِ!
أَبَحْتُ عَمَّنْ يُحَطِّمُ الْأَجْرَاسَ، وَيُطْفِئُ النَّيْرَانَ، وَيُطْلِقُ الْأَقْدَامَ، وَيُؤَدِّنُ
بِالنَّجَاةِ!

تُرى: هَلْ يَخْرُجُونَ مِنْ صَحْرَاءِ التِّيهِ وَالْغُرْبَةِ؟

نَعَمْ .. يَوْمًا سَيَخْرُجُونَ.
فَفِي يَوْمٍ يَتَجَرَّأُ أَحَدُهُمْ وَيَنْزِعُ الْعِصَابَةَ السَّوْدَاءَ عَنْ عَيْنِيهِ، وَيَبْصُرُ مَا حَوْلَهُ
.. وَيَرَى يَوْمًا الطَّرِيقَ!
يَوْمًا .. يَتَجَرَّأُ أَحَدُهُمْ؛ فَيَأْبَى الضَّيْمَ وَلَا يَرْضَى بِحَيَاةِ الْأَنْعَامِ، وَيُحَطِّمُ
سَوِّطَ الْجَلَادِ!

يَوْمًا يَرْفَعُ أَحَدُهُمْ صَوْتَهُ بِشَجَنِ يَحْدُو بِالْقَوْمِ فِي طَرِيقِ النَّجَاةِ!
فَعَدَا .. لَا بُدَّ أَنْ يُشْرِقَ يَوْمٌ جَدِيدٌ! ...

مُسَافِرٌ بِلَا شُطَّانَ

مُسَافِرٌ مُنْهَكَ الْقُوَى .. سَقَطَتْ مِنْهُ السُّنُونُ فِي صَحْرَاءِ حَيَاتِهِ الْقَاحِلَةِ ..
تَاهَتْ مَعَالِمُهَا .. اِبْتَلَعَتْهَا حَبَّاتُ الرَّمَالِ الْقَاتِلَةِ؛ كَمَا اِبْتَلَعَتْ خُطُوَاتِهِ مِنْ قَبْلُ!
طَالَ تَرَحُّلُهُ، وَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ .. اُنْحَنَى ظَهْرُهُ وَاحْدَوْدَبَ .. اِنْكَسَرَتْ عَصَاهُ

...

يَرْحَلُ فِي عَوَالِمِ ذَاتِهِ الْمُنْسِيَةِ مِنَ الْعَالَمِ .. عَوَالِمِ بِلَا تَضَارِيْسٍ، لَا يَجِدُ لَا
اسْمًا، وَلَا يَرَاهَا فِي جُغْرَافِيَا الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ.
سَقَطَتْ مِنْهُ حُرُوفُ الذَّاكِرَةِ فِي الْبُحُورِ الْعَمِيْقَةِ لِلَاوَعِيِّ الْأَسْوَدِ .. مَاتَتْ
فِيهَا الْجُدُورُ وَالْفُرُوعُ .. رَبَّمَا بَقِيَتْ بَعْضُ حُرُوفِ سَهْوًا؛ تَعَلَّقَتْ بِطَوِّقِ نَجَاةٍ
مُتَهَرِّأً .. عَلَقَتْ بِهِ زُهُورَ زَابِلَةٍ!
